IRAQI Academic Scientific Journals
العراقية المجلات الأكاديمية العلمية
مجلة كلية الكوت الجامعة للعلوم الإنسانية
ISSN (E) : 2707 – 5648 II ISSN (P) : 2707 – 563x
https://jh.alkutcollege.edu.iq/
k.u.c.j.hum@alkutcollege.edu.iq
عدد خاص - المؤتمر العلمي السادس لكلية الكوت الجامعة - 2 – 3 مايو/ أيار 2023

يورغن هابرماس النظرية التواصلية (بالتطبيق على الجامعات)

أ. م. د. هديل تومان محمد البعاج [1]

المستخلص

يعد الفيلسوف هابرماس من اهم علماء الاجتماع المعاصرين ، كرس كثير من أفكاره لتحليل الواقع الاجتماعي ونظر الى الحداثة على انها مشروع لم يكتمل وبديل الحداثة هو العقل التواصلي إذ قدم نظريته في الفعل التواصلي والذي سعى من خلالها الى تأسيس لاخلاق تواصلية تدعو الى الحوار في فضاء يتيح المساواة بين الأطراف المتحاورة، وقد طبق نظريته على كثير من مرافق الحياة، ونحاول في بحثنا هذا من خلال استخدامنا المنهج التطبيقي ربط نظرية الفعل التواصلي بإصلاح الجامعات انطلاقاً من المفاهيم المؤطرة لهذه النظرية .

الكلمات المفتاحية : هابرماس، الفعل التواصلي ، اصلاح الجامعات

انتساب الباحثة
[1] كلية الامام الكاظم (ع) ، للعلوم الإسلامية، العراق، واسط، 52001

[1] Hadil.toman@gmail.com

[1] **المؤلف المراسل**

معلومات البحث
تاريخ النشر: آب 2023

Jürgen Habermas Communicative Theory (Applied to Universities)

Hadeel Toman Mohamd [1]

Affiliation of Author
[1] Imam AL-Kadhim college (pbu), Iraq, Wasit, 52001

[1] Hadil.toman@gmail.com

[1] **Corresponding Author**

Paper Info.
Published: Aug. 2023

Abstract

The philosopher Habermas is considered one of the most important contemporary sociologists. He devoted many of his ideas to the analysis of social reality. He viewed modernity as an unfinished project. The alternative to modernity is the communicative mind. He presented his theory of communicative action, through which he sought to establish communicative ethics that call for dialogue in a space that allows equality. between the negotiating parties, and he applied his theory to many life facilities, and we try in this research, through our use of the applied approach, to link the theory of communicative action to the reform of universities based on the concepts that frame this theory.

Keywords: communicative theory, universities, communicative act

المقدمة:

يعد يوغن هابرماس من رواد علم الاجتماع ، وقد مثل الجيل الثاني من مدرسة فرانكفورت ، تنوعت كتاباته بين الفلسفة والسوسيولوجيا وتعد نظريته (الفعل التواصلي) نظرية توجت مجوهرات هابرماس في فترة الستينات ويعد التواصل عند هابرماس حامل لدلالات عديدة فهو تواصل مع الحداثة ومع الافراد، وقد سعى من خلال نظريته الى التأسيس لاخلاق تواصلية تدعو الى الحوار في فضاء يتيح المساواة بين الأطراف المتحاورة وقد طبق نظريته على كثير من مرافق الحياة ونحاول في بحثنا هذا من خلال استخدامنا المنهج التطبيقي ربط نظرية الفعل التواصلي بإصلاح الجامعات انطلاقاً من المفاهيم المؤطرة لهذه النظرية.

المبحث الأول: عناصر البحث

مشكلة البحث :

حلل هابرماس البنية الاجتماعية ليضع شروطاً أساسية لإقامة حياة اجتماعية على أسس عقلية باداءً بمشروعه التواصلي والذي بدا

كنظرية فلسفية الا انه انتهى كنظرية سياسية يؤهل فيها الانسان لحماية عالمه من سيل الاداتية على نحو يرجع التوازن بين عالمه المعاش وعالم الانساق ، فما الذي يعنيه هابرماس بمفهوم التواصل، وما هي منطلقات نظرية التواصل، وما هي شروط تحقيق التواصل، وهل يمكن اصلاح الجامعات على وفق النظرية التواصلية، هذه هي اهم التساؤلات التي تدفع موضوع بحثنا الحالي.

اهداف البحث : يهدف البحث الحالي الى

1- تفسير مفهوم التواصل عند هابرماس .
2- معرفة الشروط الأساسية لتحقيق التواصل.
3- اسقاط النظرية التواصلية على واقع الجامعات .

أهمية البحث :

تكمن أهمية البحث في تبيان أهمية الاسهامات التي وضعها الفيلسوف هابرماس في الفعل التواصلي والعقل التواصلي والتي فتح من خلالها الفلسفة الحديثة على نظرية التواصل بشكلها المتميز، ثم سار بها كي تمس السلوك الاتصالي، سعيا منه لتشخيص حال العالم ، وتحليل نتائج ما يهدد الحياة الاجتماعية.ومن خلال هذه النظرية نستطيع اصلاح المرافق الاجتماعية ومنها الجامعات.

منهج الدراسة

انتهجت هذه الدراسة الوصف السوسيولوجي ، كما انتهج البحث المنهج التطبيقي من خلال اسقاط نظرية (الفعل التواصلي)على واقع الجامعات لمعرفة امكاناتها في التفسير وتقديم المقترحات في هذا المجالات .

المبحث الثاني (هابرماس واسس نظرية الفعل التواصلي)

اولا: من هو هابرماس

منظّر وفيلسوف وناقد اجتماعي وسياسي وهو معروف بإسهاماته في النظرية النقدية ويرتكز بعض اهم اسهاماته على اللغة واستخدامها. تدرب هابرماس في فرانكفورت، وهو ينتمي للجيل الثاني من مدرسة فرانكفورت، ولد في دوسلدرف عام 1929 ودرس في جامعات غوتجن وزوريخ وبون وفرانكفورت، إذ كان مساعدا لادورنو، كتب اطروحته حول فلسفة فردريك شيلينغ والتطور التاريخي للمجال العام في المجتمع الحديث، قام بالتدريس في هيدلبرغ وفرانكفورت قبل ان يصبح مديرا مشاركا لمعهد ماكس بلانك في سترانبرغ عام 1971 ، وفي المدة من العام 1983 حتى تقاعده عام 1993 كان مديرا لمعهد واستاذا للفلسفة في جامعة فرانكفورت، تراوحت كتاباته من اعمال فلسفية خالصة الى تعليقات نقدية على اعمال المجتمع المعاصر، وكان اول كتب هابرماس بعنوان (التحول الهيكلي في المجال العام) قد ظهر عام 1962 وكان رصدا تاريخيا لظهور ونمو وتدهور المجال العام ، وقد نحا هابرماس بنظرية العمل الاتصالي الى تحول اجتماعي جديد بتأكيده الطبيعة الاجتماعية للممارسات الاتصالية وانتاج المعرفة ومع كتابه المختبر (منطق العلوم الاجتماعية) بزغت فلسفته التواصلية حتى اصبح مصطلح النظرية التواصلية يقترن بهابرماس مثلما تقترن المادية التريخية بماركس([1])، وقد اشتهر بهذه النظرية يورغن هابرماس في كتابه (نظرية الفعل التواصلي) الصادر سنة 1981م، والذي أعاد طبعه سنة 1984م؛ وهو من أبرز الوجوه الفلسفية البارزة في القرن العشرين. وهدف هابرماس من هذه ا النظرية الفلسفية الانتقال بالعقلانية من كونها ممارسة الذات إلى ممارسة المجتمع، أي انتقالها من عقلانية الفرد إلى عقلانية المجتمع، وعقلانية المجتمع تتجلى في الحياة اليومية للناس عبر نشاط الفعل التواصلي.([2])

ثانيا.أهم المرجعيات العلمية ل(هابرماس)

اهتم هابرماس بشكل مباشر بسوسيولوجيا **فيبر**، انطلاقا من طرح وتحليل مبدأ وصيرورة عقلانية/عقلنة للعلم الحديث والمعاصر، فهذه العملية التاريخية والمعقدة والممتدة التي بدأت وتعمقت في الغرب، وامتدت إلى دول أخرى في العالم، تحمل بين طياتها عناصر الضعف والسلب وعناصر القوة والإيجاب ، ولتجاوز هذه النزعة العدمية والتشاؤمية يعيد هابرماس تأويل وتفسير سوسيلوجيا فيبر: ونقطة انطلاقه هي إبرازه لخاصية المعنى والقصد للفعل الإنساني كما يؤكده فيبر، فليس كل فعل إنساني هو نشاط جدير بالاهتمام السوسيولوجي ، باستثناء ما له معنى مرتبطا بقصد الفاعل صريحا أو ضمنا.

استفاد هابرماس ايضاً من السوسيولوجي **بارسونز** في معالجاته لإخفاقات منهجيات التأويل، وذلك من خلال تشخيصه للطريقة التي تفرض بها خارجيات المجتمع البنيوية كالاقتصاد والسياسية. وكيف أن الأخيرة تقتحم العوالم الخاصة بالفاعلين الاجتماعيين، وذلك باستعمار العالم المعيش. ولا شك في أن هذا هو المهم لهابرماس، إذ إنه يجب نقل الاهتمام من حيز الافتراضات المنهجية

التي يجب أن تستخدم في دراسة العالم الاجتماعي إلى حيز الاهتمام بكيفية عمل العالم الاجتماعي نفسه([3])

كما استقرأ هابرماس **هربت ميد** و أخذ عنه فكرة دور الآخر في تشكل الأنا ، فالافراد الذين يريدون أن يقيموا علاقة عملية مع ذاتهم يؤكدون من تلقاءأ نفسهم أنهم ليسوا فقط كائنات مستقلة وانما متفردة وقادرة على اتخاذ المواقف التي تمكّنها من تحقيق التوافق التذاوتي، وهذا يكون مضمونا من خلال علاقة الاعتراف المتبادل الذي تلتقي فيه الأنا مع الآخر في أفق القيم والغايات

يعد **ماركس** من المرجعيات الفلسفية الملهمة في فكر هابرماس بصفة خاصة، وايضاً لدى مدرسة فرانكفورت بصفة عامة. ولكنه تجاوزه لاحقا، وخاصة في كتابه ما بعد ماركس([4])

ثالثا: نظرية الفعل التواصلي عند هابرماس المنطلقات والأبعاد

ما هو التواصل ؟ قد يكون في ابسط تعريف له هو العملية التي بها يتفاعل المراسلون والمستقبلون للرسائل في سياقات اجتماعية معينة، او هو ذلك التفاعل المصوغ عن طريق الرموز والذي يخضع لضرورة المعايير الجاري بها العمل والتي تحدد انتظارات وسلوكات متبادلة ، حتى يتوجب ان تكون مفهومة ومعترف بها من طرف شخصين فاعلين على الاقل ([5])

ان اشكالية التواصل محورية في منظومة هابرماس ، وهي تتبلور من خلال مفاتيح نظرية تعد بمنزلة استكشاف للبنى الفكرية ، وهي تعني أرهاصات تشكلها الاولى ، فلا غرو ان التواصل هو المفهوم الاكثر مركزية في علم الاجتماع الالماني، انه يمثل لهابرماس نقلة براديغيمية ونقلة تواصلية ، يعني أن مفهوم التواصل أصبح ضروريا من اجل وصف وترشيح البناء الاجتماعي

فما هو مفهوم التواصل عند هابرماس ، وما هي شروطه ؟ وفعاليات نجاح هذا التواصل ؟

بنى الفيلسوف {هابرماس} نظريته الشهيرة (الفعل التواصلي) على الطريقة الكانطية من خلال طرحه السؤال الآتي : كيف يمكن أن يكون الاندماج الاجتماعي سهلا؟

إذ يهدف من خلال نقاشه إشكالية الحداثة وما بعد الحداثة عملية إعادة بناء الواقع الاجتماعي الذي يربطه بنظرية (العقل التواصلي) وإمكانية الوصول إلى نظام عالمي من الممكن أن يكون عقلانيا وسليما.

ومن خلال انطلاقه من فرضية أساسية هدفها توفير عوامل جديدة من داخل المجتمع (ما بعد الحداثة) تجعل من الصعب على أفراد ذلك المجتمع أن يتصرف بعدوانية من خلال تأسيس علاقات تواصلية جديدة توجه الاهتمام إلى نوعية العلاقات الاجتماعية والاتصالات الرمزية وتراجع نفسها عبر الثقافات الأخرى وعبر التفاهم والحوار المفتوح على الآخر، وتتجاوز بذلك ما نكص عن تحقيقه عصر (التنوير) الذي باتت فيه الشكوك تتسرب حول جدوى الحداثة وعقلانيتها فالعقل التواصلي عند هابرماس لا يقوم على الإكراه بأي شكل من الأشكال بل على الاتفاق وبلورة رأي يجمع عليه الفاعلون من خلال الحوار العقلاني والتفاهم المتبادل للوصول إلى الأهداف المرجوة فهو يفترض لغة تعايش في كل زمان ومكان قائمة على حوار مفتوح أساسه الاحترام المتبادل بين الآراء المختلفة، وما أفعال الأفراد إلا فعل إنساني منظم يعرض أهداف واحتياجات الفاعلين الاجتماعيين، فهناك دائما قاسم مشترك بين الذوات الفاعلة في المجتمع يفرض حوارا يتوصلون به إلى اجتماع في الرأي من خلال العامل الأهم حسب (هابر ماس) ألا وهو اللغة التي يعدها مدخلا رئيسا ووسيلة للتفاهم . ومن الواقع المعيش تستطيع الذوات الفاعلة من العمل والتفاعل فالأول (العمل) منظم حول حركات مقاصدية غائية . والثاني (التفاعل) حول حركات تواصلية ([6]).

يرى هابرماس إن التراضي المسبق بين الأفراد على أساس المعايير الذاتية يكون قبل الوسائل والغايات، بمعنى أن الموقف الذي يتبناه المشاركون يجب أن يكون موجها نحو النجاح من خلال التفاهم المتبادل ويتم ذلك عن طريق تنمية القدرة على عقلنة السلوك في مختلف مناحي الحياة . فالذات الفاعلة ليس بمقدورها أن تختار بين الفعل الغائي والفعل التواصلي حتى لو أظهرت القدرة على ذلك لأنه لا يمكن إعادة إنتاج البيانات ، الرمزية الخاصة بالعالم المعيش إلا من خلال التراث الثقافي، والاندماج الاجتماعي، وإضفاء الطابع المجتمعي، في هذا المنحى فـ(هابرماس) يرى أن التعلم ليس بالضرورة أن يكون فقط داخل مجالات الإنتاج، ولكن يمكن أن يكون لدى قوى الإنتاج التي تحدث انطلاقا منها التجديدات التي تفتح الطريق فعليا نحو التطور الاجتماعي، فالحاجة إلى الوفاق هي أساس الفعل التواصلي ([7])

ويطرح (هابرماس) [الشكل التشاوري] للديمقراطية مبتعدا عن الشكلين الليبرالي والجمهوري لأنه يؤكد من خلال هذا الشكل على الأهمية القصوى للعقل التواصلي الذي من خلاله

تتشـــكل إرادة الجماعة، وهذا التشـــكل لا يتم إلا من خلال التفاهم الأخلاقي في شـأن الهوية، وبالتشـاور والاتفاق العقلاني يتم اقتسـام المصـــالح بين الأفراد والجماعات، هذه الديمقراطية تقوم على وسـيطي الأحزاب والبرلمانات من جهة والمناقشـة الحرة في إطار الفضاء العمومي أو المجتمع المدني من جهة أخرى.([8])

ف (الديمقراطية) تصـــبح فضـــاءً مفتوحاً تتغذى بنيته التحتية التواصـلية باسـتمرار عم طريق القوى الاجتماعية المتمايزة والتلقائية إلى حد ما، والمصـــدر الحقيقي للاندماج الاجتماعي لدى (هـابرمـاس) هو التضـــامن الاجتمـاعي الـذي يتطور من خلال فضـــاءات مســـتقلة قائمة على الحوار الذي يأخذ شـــكله الحقوقي لتأسيس دولة القانون، بمعنى :

أن القانون يصـــبح رابطا بين ما هو نظام وبين ما هو عالم معيش يمنع تمزق وشائج التضامن الاجتماعي .

فمن خلال التراضي يتم ترحيل أو إخماد أو على الأقل الإطاحة بكل مظاهر اللامســـاواة في العلاقات الاجتماعية وان اعتماد قدر من المساواة الفعلية يحقق الاحترام المتبادل بين الحقوق والواجبات لهذا فأن الفعل التواصلي من الناحية السياسية يجب أن يلزم بقبول الآخر لإنســـانيتـه، ويتم ذلـك حينمـا يكون المجتمع على مســـتوى من الديمقراطية التواصـلية المنفتحة على فضـاء عمومي يسمح بإدامتها من خلال تشـــخيص الأخطاء ومعالجتها. فالاحترام المتبادل بين الحقوق والواجبات يتأسـس هنا على علاقات تعارف متبادلة فإنه لا يستخرج دائما كل نتائج هذا المنظور([9])

ويرى هابرماس أن العداء بين "أ" و "ب" قادر على إيجاد حلول بفضـــل الحوار المتحرر من كل اكراهات. ويبرى هابرماس أنه بالإمكان دائما إعادة بناء المواقف المتعارضـــة بشـكل أولي، داخل موقف ثالث يأخذ بالاعتبار الموقفين الأولين ويتجاوزهما.

وممن نافلة القول، كافتراض أســاســي، "أنه كلما انطلقنا من فيض من المعطيات الدقيقة، ومن معالجة ملائمة لها، سـنصـل إلى نتائج معقولة أو تكون عادلة الى حد ما. و يوجد هنا افتراض يمضـي أبعد بكثير من التصـــور الليبرالي المحض للديمقراطيـة. وداخـل هـذا التصـور لا يمكن النظر إلى أي انسداد مستمر، وأي تمظهر للعنف سوى أنها أشكال إخفاق انتقالية، إلى حد ما، لحل متفاوض حوله أو متفق عليه. فضـــلا عن تنامي جاذبية التورط في مثل هذا الصـــنف من التمظهرات إلى حد يفرض بشكل جلي لا مراء فيه [10]، فيفترض أن الاندماج الاجتماعي هو مشـــاركة الفاعلين وإعادة خلق دائمة للتراضـــي عن طريق التواصـــل، يعي بأن القيم والمعايير مفتوحة أمام المناقشـــة. لكن على اعتبار أن همه الأكبر يقوده نحو مجهود إعادة تأسـيس عقلاني للديمقراطية التي لا تتناسـب إلا مع المعايير القانونية، حتى يتجاوز مآزق التحديث، الذي يؤدي إلى تعقيد متنامي للمنظومات الاجتماعية، وكذلك فإن تصـوره يتجه أكثر نحو إعطاء أهمية للأبعاد المؤسـســاتية للتحديث، أكثر من اتجاهه الفاعل نحو صراع الطبقات أو الصدامات الاجتماعية في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة. في اسـتدعائه للقانون والديمقراطية المداولاتية أي القائمة على مبدأ الحوار، تكمن إرادة إقامة مبدأ وحدة داخل مجتمع منقسم، وذلك عن طريق الحوار المتحرر من الإكراه([11])

رابعا: شروط تحقيق التواصلية

يظهر هابرماس منهجيته من خلال محاولة تنظيم وتقنين النشـــاط التواصـلي وحتى لا يصـبح عشـوائيا فلابد ان يضـبط بمجموعة من الشـروط ، بدءاً بالمتواصـلين مرورا بشـكل التواصـل وانتهاء عند قطف ثمار هذا التواصـل ، فالتواصـل حوار يدور بين ذوات فاعلة مختلفة ونقاش مؤسس على ضوابط:

1- الفعل التواصـــلي هو علاقة تفاعل بين ذاتين او اكثر داخل مجال العالم المعيش ، لذلك من حق اي فرد لـه القدرة على الفعل والحوار والكلام ان يشارك في التجربة التواصلية على ان يعترف بمزاعم الصدق المتفق عليها بين الذوات.
2- اللغة هي روح عملية التواصـل بين الذوات المشـاركة وبينهم وبين العالم الخارجي ، باعتبار اللغة اسـاس التواصـل سـواء كان المشارك متكلما ام مستمعا.
3- مبدأ تكافؤ الفرص بين المشـاركين في الحوار ، بحيث ان كل واحد منهم له الحق في الدفاع او الاعتراض او السـؤال ، مع الاعتراف بامكانية الوقوع في الخطأ وامكانية تصـــحيحه فلا شـيء غير معرض للنقد، ولا تمارس اي سـلطة على الحوار الا سيطرة العقل.
4- من ثمّ يتحرر النقاش من كل ألوان التسلط والهيمنة التي يمكن ان يتعرض لها الخارج اي ان الحوار يجب ان يكون حرا بين ذوات حرة ومتكافئة في المكانة والمسـتوى لضـمان موقف مثالي للحديث.

5- ان الحوار يجب ان يتوفر على قواعد اخلاقية والتي من اهمها ضمان الاجماع الذي لايمكن ان نصل إليه الا من خلال مفهوم الاطروحة الافضل.

6- ترمي التجربة التواصلية للوصول الى اتفاق بين المشاركين في النقاش ويفترض وجود تعارف متبادل بين اطراف الحوار ووجود نوع من التقارب في وجهات النظر ومعنى ذلك ان الاتفاق طريقة التفاهم ، والتفاهم يفترض التفاهم المتبادل والتقارب في وجهات النظر. ان التفاهم هو العملية التي من خلالها يتحقق اتفاق معين

7- ان اخلاقيات النقاش تفترض ان المشارك في التواصل يختار تعبيرا معقولا ودقيقا لكي يتمكن المتحاورون من تفهم بعضهم والمتكلم يجب ان يكون له نية توصيل المعنى وتصبح العلاقة بين الصادق والمصدق ، ومن ثمّ على المتكلم اختيار تلفظ دقيق بالقياس الى المعايير الجاري بها العمل لكي يتمكن المستمع من فهم وقبول هذا الطرح فيكون بذلك تداوليا واخلاقيا، فالبرهان القوي حسب هابرماس هو من يفرض نفسه في عملية الحوار.

8- ان التواصل يبنى على الصدق ، فاذا تعرض للشك او لم يستطع المشاركون في التواصل تبريره بالحجج العقلية فان مزاعم الصدق نفسها تصبح موضع سؤال وربما يختل التواصل او يتوقف وفي هذه الحالة يرى هابرماس انة ما ان يحصل انتقال من الوضعية التواصلية التي افتقدت شرطا من شروط العقلانية الى النشاط الستراتيجي واما توقيف التواصل او استئناف النشاط التفاهمي على صعيد الخطاب البرهاني لمعالجة ادعاء الصلاحية المعرض للاختلال عن طريق المناقشة ([12]).

المبحث الثالث: اصلاح الجامعات ضن الرؤية التواصلية (لهابرماس)

وفي قفزة سريعة نحو الواقع الحالي، نستطيع القول إن الجامعات العراقية قد تأثرت بسلسلة طويلة ومريرة من الأحداث التاريخية الكبرى أبرزها سياسات الحكومات العراقية ذات التوجهات الأيديولوجية المغايرة لطموحات شعوبها، والحروب المتجددة ، والأزمات الاقتصادية والسياسية، وغيره مما لا يمكن الوقوف عليه أو إعطاؤه حقه كاملاً من البحث والتحليل هنا ، إلا أن نتائج كل تلك الأحداث لا شك بادية لكل مُطّلع على واقع جامعاتنا العراقية اليوم التي تعاني سلسلة من الأزمات النوعية عموماً، رغم أن عمق هذه الأزمات يختلف من جامعة إلى أخرى. ومن منطلق إيماننا بأن الأفكار الإقصائية لأي أمة أو حضارة سابقة أو حالية أمر لم يعد مقبولاً، فما تم من إنجازات حضارية وعلمية عظيمة، لأمم الغرب والشرق على السواء ما كانت لتتحصّل دون التواصل والتعارف العلمي والفكري الذي حصل، والذي يجب أن يستمر للاستفادة من الخبرات والتجارب التي مر بها الآخرون، في إطار الرؤية التواصلية الحضارية الفكرية بين الأمم.

1- التواصل بين الجامعة والدولة والمجتمع

فالجامعة تعني الجميع او المكان الذي يجتمع فيه الناس من هنا وهناك . ومن هذا الفهم أيضاً جاءت كلمة الجَامِعَة التي تعني: مجْمُوعة معاهد علميَّة، تُسَمّى كُلِّيَّاتٍ، تدرّس فيها الآدابُ والفنونُ والعلومُ

وبالاحتكام إلى نظرية الفعل التواصلي عند هابرماس فإنه لا بد من إتاحة المجال لممثلين عن الجامعات والدولة وغيرها من الأطراف ذات العلاقة، للتواصل بينهم في نقاش عقلاني أخلاقي تتحدد وفقه رؤية يجمع عليها الطرفان لشكل الجامعة الذي نريد، وأهدافها التي نبغ.، فما هي الآلية التي تضمن حصول هذا التواصل وضمن الشروط التي تضمن الوصول إلى إجماع أو اتفاق بين الطرفين؟ واعتقد أن هذا الأمر يجب أن يهتم به القائمون على الجامعات بالدرجة الأولى، ويحتاج إلى كثير من العمل والجهد المركز.

ولا يقتصر الخلل على معطيات متعلقة بالجامعة أو بعلاقتها بالدولة، ولكن بعلاقتها بالمجتمع كذلك؛ فالتعليم الجامعي، خيار لا يمكن التنازل عنه لاعتبارات اجتماعية واقتصادية؛ فالشهادة الجامعية أولى خطوات الاعتراف بالفرد كعضو يحظى بالاحترام والقبول في المجتمع، لما يُعوّل عليها من ضمان فرصة الحصول على وظيفة، وبذلك ارتبطت الجامعة في أذهان الغالبية بالمؤسسة التي تخرّج مؤهلين لسوق العمل، وارتبط نتيجة لذلك إقبال الطلبة على التخصصات التي يمكن للسوق استيعابها سريعاً . إن اقتصار دور الجامعة على تلبية حاجات الأفراد الاجتماعية والاقتصادية أمر مقلق، لأن في ذلك تجاهلاً للدور الأساسي للجامعة في إنتاج المعارف والعلوم .

ورغم ما يوكل للجامعة من دور مجتمعي مهم، إلا أن مخرجات التعليم الجامعي تعاني هي الأخرى صعوبات متعلقة باستيعاب

السـوق للأعداد الهائلة لخريجيها، بما يؤدي إلى ارتفاع نسـب البطالة في المجتمع، إلى جانب أن خريجي الجامعات غالباً ما يفتقدون القدرة على أداء وظائفهم مباشرة، ويتطلب منهم الخضوع للتدريب من جديد .ورغم أن الجامعة كمؤسسة لا تستطيع التواصل مع كل فرد على حدة، فإنه لا بد للمجتمع من أن يفرز مؤسـساته المدنيـة ذات الاهتمـام بـالتعليم الجـامعي، وتكون طرفـاً جـديراً بالدخول مع الجامعات في نقاش وحوار يصـل بهم إلى الاتفاق حول أهم القضايا التي يجب معالجتها من الطرفين. ويكون للإعلام كذلك دور في هذا المجال، إلى جانب بقية المؤسسات الاجتماعية الأخرى. وهذا لا يعني بالضرورة أن تصبح الجامعة أسيرة ثقافات مجتمعية ضيقة، لأن في ذلك تعارضـاً مع مفهوم الجامعة يصـفتها مكاناً للجميع، بل للعالم أجمع.

2 - التواصل الفكري والبين - علمي

إذا انطلقنا من فكرة عالمية الجامعة واستقلالها، وضـرورة توافر أجواء الحرية المنسـجمة مع احترام العقل الإنسـاني، وتحفيز التفكير، فهذا يعني أنها ستكون بيئة مناسبة لظهور توجهات فكرية متعددة، وهذا شـيء طبيعي وصـحي، وبالاسـتفادة من نظرية هابرماس التواصـلية، فإن الحوار والنقاش العقلاني المبني على قوة الحُجاج والمنطق هو الذي سـيحكم العلاقة بينها . وعليه تبدو دعوات السماح للطلبة وتشجيعهم ولا سيَّما طلبة العلوم السياسية والتخصصات الإنسانية عموماً لممارسة العمل الفكري السياسي، أمراً في غاية الأهمية .وربما نشـير هنا إلى اهتمام هابرماس بمناقشـة تشـكيل ما أسـماه الوعي السـياسـي للطلبة في كتابه نحو مجتمع عقلاني ويعني بـه اعـادة انتـاج العقلانيـة التي توازن بين المعرفة الثقافية والنقدية، وتأخذ أشـكالاً مختلفة في الظروف التاريخية- الاجتماعية المختلفة وهنا تبدو عملية تشـكيل الوعي السـياسـي للطلبة نتيجة مباشـرة للنقاش العلمي العقلاني حول ما يجري من أحداث سياسية لا يمكن إبقاؤها خارج أسوار الجامعة، إذ لا بد من إخضـاع الأفكار كافة إلى ما يمكن تسـميته مختبرات فكرية تديرها أقسـام العلوم الإنسـانية، فتكون الجامعة بمثابة المصـنع للأفكار والمختبر لتجريبها قبل خروجها ناضـجة إلى المجتمع. وفي هذا خروج من دائرة التبعية الفكرية لتيارات سياسية أو فكرية أو دينية، تتمثل في الجامعات، إن نقاشـاً مطولاً وجاداً، وحواراً عقلانياً ضـرورياً لا بد من أن يتم بين الأطراف المعنية داخل الجامعة وخارجها، يتم فيه تناول القيمة الاجتماعية للعلوم والمعارف المختلفة.

فنجد أن العلوم الإنسـانية وتخصـصـاتها المختلفة :كعلم الاجتماع والفلسـفة والتاريخ والتربية وغيرها لا تحظى بالمكانة المرموقة التي اكتسبتها العلوم الطبيعية، كالطب والهندسة، بحيث فقدت هذه الأقسـام وعلومها وطلبتها وأسـاتذتها الاعتبار الذي يتناسـب مع دورهـا الحقيقي المغيّـب عن مجـالات فعلهـا المهمـة والخطيرة (الإنسان والمجتمع.).

ويطمح المقدّرون لقيمة العلوم الإنسـانية أن تتمكن الجامعات من تخريج فلاسـفة وسـياسـيين وتربويين وعلماء نفس، كما تخرِّج أطباء، ومهندسين، وممرضين ...إلخ .ولا يكون ذلك إلا من خلال الثورة على الأنماط التقليدية في التدريس، والتركيز على نوعية المعارف والمهارات التي تؤهل الطالب لممارسـة التفكير النقدي، وأساليب البحث المناسبة لكل تخصص على حدة، وبالتشارك بين الأساتذة والطلبة.

3 - التواصل بديلاً من وحدة العلوم

طرح هابرماس نظريته التواصلية كبديل لفكرة وحدة العلوم، وبناءَ على ذلك، نتسـاءل عن إمكان إيجاد السـبل المُمكنة لإعادة اللحمة بين العلوم من خلال التواصل المبني على الاعتقاد بأنه مهما بلغت التخصصات دقة وعمقاً، يبقى هناك ما يجمع بعضها بعضاً، ويؤكد حاجة بعضـها إلى بعض، فلا يمكن تجاهل ما يجمع بين الطب والمجتمع والأخلاق، وبين الكيمياء وعلم النفس، وبين الرياضيات والفلسـفة، وبين التربية والتمريض . والمبني كذلك على الإيمان بأن العلوم جميعها تمتلك القيمة والاحترام والدور الذي يحتاجه المجتمع بشكل متساوٍ .وأنه لا بد من إيجاد المجالات العامة التي تجعل من هذا التواصل ممكناً في إطار العملية التعليمية.

في إطار إيجاد سبل التواصل بين العلوم والتخصصات المختلفة وطلبتها، يمكن التفكير في طرق تجعل انتقال الطلبة أنفسـهم إلى أروقة الأقسام والتخصـصـات الأخرى ممكنة وسـهلة، وقد يكون ذلك من خلال تنظيم مناسبات للنقاشات العلمية على شكل ندوات أو مؤتمرات علميـة، تطرح فيهـا قضـايـا ذات طـابع متـداخـل التخصـصـات، بما يجعل طالب الطب يتفاعل ويتواصـل مع طلبة علم الاجتماع على سبيل المثال، إذا ما طرح موضوع مثل المرض كظاهرة فسيولوجية يدرسـها طلاب الطب والصيدلة، ولكنها ذات أبعاد أخرى اجتماعية ونفسـية، يدرسـها طلاب العلوم الإنسـانية . كما يمكن طرح مواد تفرض على الطالب متابعة ما تنتجه العلوم الأخرى ومواكبتها حتى يتمكنوا من فهم أفضـل لواقع الإنسـان المعاصر.

4 - التواصل بين الأستاذ والطالب والإدارة

أخذ الحديث عن علاقة الأستاذ الجامعي بالطالب، وبأساليب التعليم التي غالباً ما تكون مبنية على التلقين والتكرار، حيزاً كبيراً من الأبحاث التربوية في الوطن العربي، ومع ذلك، ما زالت قاعات الدراسة تفتقر إلى النقاش العلمي العقلاني الذي يحفز التفكير والنقد البناء، وما زالت علاقة الأستاذ بالأبحاث في كثير من الأحيان لا تتجاوز حاجته إلى الترقي الوظيفي، وبقي مستوى النقاش داخل قاعات التدريس محكوماً بسلطة المدرّس، وغيرها الكثير من المظاهر التي تجعل الجامعات العربية في مراتب متأخرة عن مثيلاتها في الغرب. وربما يكون تطبيق النموذج التواصلي في هذه الحالة هو الأعمق أثراً وفاعلية، بسبب وضوح أطراف العلاقة المباشرة هنا، ويبقى ذلك أمراً مرتبطاً بقناعة المدرس ذاته، وقدرته على خلق مختلف الأشكال التواصلية من ورش عمل وحلقات دراسية، يناقش فيها الأستاذ، على سبيل المثال، نتائج أبحاثه مع طلبته، ويحثهم على التفكير فيها ونقدها وتطويرها، خصوصاً مع طلبة الدراسات العليا.

كما أن اختيار إدارة الجامعة يجب أن يكون ضمن إطار ديمقراطي يمارس فيه الأساتذة حريتهم في اختيار الأقدر على إدارة هذه المؤسسة الهامة .وهنا يمكن طرح أحد أشكال التواصل الذاتي الضروري بين الجامعة ونفسها، فكما أن أحد وظائفها التعليم والتعلّم، وأنه يجب على الجامعات أن تكون موضوعاً للبحث والدراسة المنهجية .فالجامعات تتعلم وتنضج بطريقة تشبه الفرد، وتمر بمراحل عدة في تطورها، فللجامعات هوية تاريخية بدأت منذ نحو ثمانية قرون، ويجدر بنا اختبار الملامح المهمة لهذه الهوية التاريخية ولا سيَّما أن الوطن العربي يملك تراثاً تاريخياً هائلاً في هذا المجال.

لم يعد مقبولاً اتّخاذ الجامعات موقف الحياد مما يجري حولها في عالم يضج بالأحداث الجِسام وما تتركه من آثار، أكثر ما نجدها صعوبة على جيل الشباب، وهم العنصر الأساسي لقيام الجامعات؟ !ولن يكون هذا ممكناً من دون أن تكون الجامعات ذاتها موضوعاً للمراجعة المستمرة المتفاعلة مع كل حدث محلي أو إقليمي أو عالمي، أو حتى مع كل تغيير في رئيس للجامعة، ومع كل اختراع جديد يدخل بيوتنا، فكيف ونحن نعيش دوامات تشمل هذا كله؟

الاستنتاجات

نستنتج مما ذكرناه سالفا من تحديد مفاهيمي للتداولية الصورية عند (يورغن هابرماس) أن هذه المقاربة تفلح إلى أبعد الحدود في معالجة الإشكالات النظرية في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

وقد استلهمها هابرماس في توسيعه دائرة النظرية النقدية عن طريق نظرية تداولية اجتماعية أكثر تنظيماً ًواتساقاً، باستناده إلى اللغة وبلورته لنظرية الفعل التواصلي، وبذلك مكنته اللغة من إحداث قطيعة مع الطروحات التقليدية في العلوم الاجتماعية المتعلقة بالوعي والفعل والممارسة .

كما يمنح هابرماس منطق الخطاب بين المتواصلين بعدًا أخلاقيا ويقيم عبر العقلانية التواصلية جسورا للتفاهم والتحاور ويخلق أرضية للاختلاف لا الخلاف في الآراء وتداول الحقائق، مقصيا أي تصور أحادي أو رؤية متغطرسة للحقيقة. وبهذا ، فعندما تكون الحقيقة ثمرة حوار بين المعقولية والعقلانية، بين العالَم والإنسان، وبين الانسان والانسان، فإنها تكون متسامحة في غالب الأحيان. هذا لا يعني أن الحقيقة عندما تتصف بالتسامح تتخلى عن صرامتها في مراعاة الشروط المنهجية والمعرفية للوصول إليها ، وإنما يعني فسح المجال لأن تكون للحقيقة عدة أصوات، وتسهيل الفرص للإنصات إليها والحوار معها.

الهوامش

(1) جون سكوت، خمسون عالما اجتماعيا اساسيا المنظرون المعاصرون ، الشبكة العربية للابحاث والنشر ، لبنان ، 2009، ص380.

(2) محمد يوب ، فلسفة الفعل التواصلي عند هابر ماس ، الحوار المتمدن، العدد 5021،، 12/22/ 2015.

(3) علي عبود المحمداوي، الإشكالية السياسية للحداثة، منشورات الاختلاف ودار الأمان الطبعة الأولى 2010 ص 56

(4) ابو النور حمدي ابو النور حسن ، يورجن هابرماس الاخلاق والتواصل، التنوير للطباعة ، بيروت ،2012، ص26

(5) بصديق زهرة ، النظرية التواصلية بين التنظير الفلسفي والممارسة الاجتماعية (هابر ماس انموذجا) ،ط1، مكتبة البصائر ، بيروت ، 2014، ص82

(6) مصدق حسن النظرية النقدية التواصلية ، المركز الثقافي العربي ، المغرب، ط1، 2005،ص141

(7) ابو النور حمدي ابو النور حسن ، يورجن هابرماس الاخلاق والتواصل مصدر سابق ،ص105

(8) ابرهيم الحيدري : هابر ماس: تعايش سـلمي عبر الحوار، التاريخ31 Thursday, August : اسم الصفحة :دراسات في المجتمع المدني، ترجمة شبكة العلمانيين العرب موقع www.3almani.org مرا فيء خاص بالمجلس العراقي للسلم والتضامن.

(9) محمد الاشهب ، الفلسفة و السياسة عند هابرماس ،منشورات دفاتر سياسية ، سلسلة نقد السياسة ، ط1، 2006، ص150.

(10) ايان كرب ، النظرية الاجتماعية من بارسونز الى هابر ماس، ترجمة محمد حسين ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والادب ، الكويت ، 1999،ص267.

(11) بو النور حمدي ابو النور حسن ، يورجن هابرماس الاخلاق والتواصل مصدر سابق ،ص145.

(12) جلول مقورة ، الفعل التواصلي عند هابرماس بين نظرية والتتطبيق ، بيسان للنشر والتوزيع بيروت 2015، ص13.

المصادر

- ابرهيم الحيدري : هابر ماس: تعايش سلمي عبر الحوار، التاريخ31 Thursday, August : اسم الصفحة :دراسات في المجتمع المدني، ترجمة شبكة العلمانيين العرب www.3almani.org.موقع مرا فيء خاص بالمجلس العراقي للسلم والتضامن.
- ابو النور حمدي ابو النور حسن ، يورجن هابرماس الاخلاق والتواصل، التنوير للطباعة ، بيروت ،2012،
- ايان كرب ، النظرية الاجتماعية من بارسونز الى هابر ماس ، ترجمة محمد حسين ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والادب ، الكويت ، 1999.
- بصديق زهرة ، النظرية التواصلية بين التنظير الفلسفي والممارسة الاجتماعية (هابر ماس انموذجا) ،ط1، مكتبة البصائر ، بيروت ، 2014.
- جلول مقورة ، الفعل التواصلي عند هابرماس بين نظرية والتتطبيق ، بيسان للنشر والتوزيع بيروت 2015
- جون سكوت، خمسون عالما اجتماعيا اساسيا المنظرون المعاصرون ، الشبكة العربية للابحاث والنشر ، لبنان ، 2009،
- علي عبود المحمداوي، الإشكالية السياسية للحداثة، منشورات الاختلاف ودار الأمان الطبعة الأولى 2010
- محمد الاشهب ، الفلسفة و السياسة عند هابرماس جدل الحداثة و المشروعية و التواصل في فضاء الديمقراطية،
- محمد يوب ، فلسفة الفعل التواصلي عند هابر ماس ، الحوار المتمدن، العدد 5021،، 12/22/ 2015.
- مصدق حسن النظرية النقدية التواصلية ، المركز الثقافي العربي ، المغرب، ط1، 2005